فى أفق السياسة العالمية

سياسة الدول فى الشرق الأوسط

لعل أحرج مراكز السياسة فى العالم الآن هى منطقة الشرق الاوسط ؛ فقد تحول مركز الثقل السياسى بعد الحرب الأخيرة من أوربا إلى سواحل شرق البحر المتوسط وخليج فارس وما بينهما من بلدان الشرق الأوسط ولم يبق على مسرح السياسة فى أوربا سوى بعض المناظر الجانبية الأوربية . أما الدوامة التى تنجذب إليها تيارات السياسة العالمية وتلتقى فيها المصالح الكبرى للدول أو تصطدم فقد تحركت شرقاً من المحيط الأطلنطى إلى مياه الشرق الأوسط . وليس غريباً بعد أن أصبحت الحرب ظاهرة عالمية يشترك فيها الشرق والغرب وتتحالف عليها دول العالم القديم والجديد أن تتجه سياسة الدول نحو المركز الذى تتجمع فيه أهم خطوط المواصلات فى العالم برية كانت أو بحرية أو جوية . وقد دلت الحربان العالميتان على ما لهذه المنطقة من أهمية حربية خطيرة امتازت بها على سائر الميادين الأخرى . ففى الحرب العالمية الأولى كانت ثورة العرب ضد الترك فى الحجاز وبلاد الشرق وهزيمة الترك ومعهم حلفاؤهم الألمان على قناة السويس عندما حاولوا غزو مصر فى فبراير سنة ١٩١٥ — كان هذا وذاك من اهم الأحداث التى حولت مجرى الحرب لصالح الحلفاء . وكانت معركة العلمين فى الحرب العالمية الثانية الحد الفاصل بين الهزيمة والنصر فقد ارتدت على أثرها قوات المحور عن شمال أفريقية . وأصبح نصر الحلفاء بعد تلك الموقعة وشيكا قريب المنال

وها نحن أولاء نرى فى قيام جامعة الدول العربية ومساعيها للتخلص من نير الاستعمار الأجنبى وفى النزاع القائم بين العرب والصهيونيين فى فلسطين وفى تنافس الدول بشأن ليبيا ومستعمرات إيطاليا القديمة . نرى فى كل هذا وفى غيره ماينذر بأشد الأخطار على قضية السلام لا فى الشرق الأوسط وحده بل فى العالم أجمع .

ولم يكن هذا أول عهد الشرق الأوسط بتنازع القوى العالمية فى مياهه

وعلى أديم سهوله وهضابه . فقديماً تطاحنت فى ميادينه جيوش الفرس والاغريق وانتصر الاغريق بقيادة الاسكندر الأكبر فاصطبغ الشرق الأوسط بالصبغة هيلينية ثم ورثه البطالمة فالرومان وبعدهم البيزنطيون . وظهر العرب فى العصر الوسيط فانتصروا على دولتى فارس وبيزنطة وسرعان ما طبعوا شعوب الشرق الأوسط بلسانهم وعاداتهم وغرسوا فى قلوب أهله ذلك الدين الحنيف مسوا ثم أصبحوا مسلمين يتكلمون العربية وكأنما قد قطعوا كل صلة بماضيهم القريب . ثم قامت من أوربا إلى بلدان الشرق الأوسط حملات الصليبيين التى بدأت فى أواخر القرن الحادى عشر واستمرت إلى قرب نهاية القرن الثالث عشر وكانت الحرب سجالا بين المسلمين وطوائف الفرنجة حتى جمع المسلمون كلمتهم فى عهد الأيوبيين أولا ثم فى عهد سلاطنة المماليك فانتصر المسلمون وسقطت عكا آخر حصون الصليبيين عام ١٢٩١ ويسقوطها زالت دولة الصليبيين اللاتينية من الأراضى المقدسة ولم يبق لهم فى تلك الأصقاع إلا بقايا ورسوم من حصونهم وقلاعهم التى بنوها وإلا قطرات من دمائهم لا تزال تسرى فى شرايين بعض أهل البلاد المسيحيين .

وظهر الأتراك العثمانيون فى بلاد الشرق الأوسط فى أوائل القرن السادس عشر بعد أن كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت إليه تجارة الشرق فتدهورت الصناعة والتجارة فى بلدان الشرق الأوسط وقل فيها الانتاج وآوت شعوبه إلى سبات عميق لم تصح منه إلا على صيحة الثورة الفرنسية وطلقات مدافع نابليون بونابرت فى الشرق .

وبظهور بونابرت على رأس حملته فى مصر تنبهت انجلترا إلى الخطر الذى تتعرض له مصالحها وممتلكاتها فى الشرق إذا ربض عدو لها فى تلك المنطقة الحيوية التى اعتبرتها منذ ذلك الوقت الرقبة التى تصل بين الرأس فى انجلترا وبين جسم مستعمراتها فى الهند والشرق . فأخذت تعمل كل ما وسعها لاحباط مسعى الفرنسيين من جهة ولتثبت نفوذها على طول الطريق إلى الهند من جهة أخرى . ومن أجل ذلك نشبت معركة أبو قير البحرية سنة ١٧٩٨ وفيها دمر نلسون أمير البحر الانجليزى أسطول بونابرت وقضى على الحملة الفرنسية فى مصر وفى سوريا بالاخفاق والخذلان . ومن أجل ذلك أيضاً احتل الانجليز جزيرة مالطة سنة ١٨٠١ كما احتلوا ميناء عدن سنة ١٨٣٩ . وخشى الانجليز أن

يثبت سلطان محمد على فى بلدان الشرق الأوسط فيقوى بذلك نفوذ فرنسا حليفته فجعلوا يناوئونه ويناصرون تركيا عليه حتى انسحب محمد على من بلاد العرب وبلاد المشرق وانكمش داخل حدوده فى مصر والسودان .

وتجدد الكفاح ثانية على أثر افتتاح قناة السويس وظهور ذلك الانقلاب الخطير فى عالمى السياسة والتجارة فى الشرق الأوسط ، فقد كان انشاء القناة عملا فرنسياً عظيما وكان النفوذ الفرنسى فى شركة القناة هو الغالب ولذلك أخذت الحكومة الانجليزية تعمل بمختلف الوسائل لمنع فرنسا من استغلال الحالة فى مصر والقناة لمصلحتها وسارع الوزير الانجليزى دزرائيلى إلى شراء أسهم الخديو اسماعيل فى القناة فأصبح من صالح انجلترا بعد ذلك أن تكون لها قاعدة قريبة تشرف منها على القناة من جهة وترقب منها نشاط السياسة الروسية التى بدأت تهدد مصالح انجلترا فى الشرق فاغتنمت فرصة انعقاد مؤتمر برلين ١٨٧٨ وطلبت إلى تركيا أن تنزل لها عن جزيرة قبرص ثمنا لمعاونتها لها ضد روسيا . وما فتئت انجلترا تواصل سياستها حتى أمكنها التغلغل فى شئون مصر المالية ثم التدخل فى شئونها السياسية وأخيراً استطاعت أن تتدخل بالقوة بمفردها وتحتل مصر سنة ١٨٨٢ بدعوى مناصرة الخديو توفيق وقمع الثورة العرابية .

ولم يكن احجام فرنسا عن الاشتراك مع انجلترا فى احتلال مصر بسبب زهدها فى مجال السيطرة والاستعمار ولكن فرنسا كانت حديثة عهد بالهزيمة أمام ألمانيا وكانت بحاجة شديدة إلى موالاة انجلترا وعدم اثارتها ضدها لتكون إلى جانبها إذا قست عليها الظروف . وكانت فرنسا ترنو ببصرها إلى شمال أفريقية وبلاد المغرب تريد أن تؤلف منها دولة استعمارية قريبة إلى بلادها تعوضها عما فقدته فى ميدانى الحرب والاستعمار فما زالت مسافة الخلف تضيق حتى تم بينهما الاتفاق الودى فى سنة ١٩٠٤ وبه انجلت فرنسا عن ميدان السياسة فى الشرق الأوسط ولم يبق لها غير الأثر الثقافى والدينى فى بعض أرجائه . وكانت لروسيا أيضاً مطامع فى الشرق الأوسط حول إيران وخليج فارس فعصفت بها هزيمتها المنكرة على أيدى اليابان براً وبحراً سنة ١٩٠٥ ، وتعاقدت روسيا وبريطانيا سنة ١٩٠٧ فانحسر الخطر الروسى وحل محله الخطر الألمانى بعد أن أعلن الامبراطور وليم الثانى صداقته نحو تركيا واعتزامه ربط الامبراطوريتين بالخط الحديدى بين برلين وبغداد . وعند ذلك أخذت انجلترا تستعد لدرء الخطر

عن تلك المنطقة بواسطة ساستها وخبرائها وصنائعها حتى دنت ساعة الحرب العالمية الأولى فلم تتوان فى إعلان حمايتها على مصر وعزل خديويها الذى اتهمته بمالأة الألمان .ودارت المفاوضات بين الشريف حسين أمير مكة وبين رسل الانجليز فاتفق الجانبان على أنه فى مقابل قيام الثورة العربية ضد الأتراك تتعهد الحكومة الانجليزية باستقلال البلاد العربية وقد حددها الشريف حسين حينذاك بحدود تدخل فى نطاقها سوريا والعراق وفلسطين فضلا عن شبه جزيرة العرب ما عدا مستعمرة عدن . وكان إعلان الثورة العربية فاتحة عهد جديد فى بلاد ظلت خاضعة للحكم العثمانى مع ما انطوى عليه من ضعف وانحلال وركود قومى شامل طوال أربعة قرون فأفاقت شعوب الشرق الأوسط من سباتها وسارت كتائبها تحت علم الثورة نافرة إلى الحرب فى صفوف الذين منوهم بالحرية والاستقلال فما انتهت الحرب بهزيمة الألمان وطرد الترك خارج حدود العالم العربى حتى تنكر لهم حلفاؤهم القدماء ودخل الشرق الأوسط فى طور جديد من حياته كله كفاح وجلاد وجهاد فى سبيل الاصلاح تارة وغالباً ضد المستعمرين الذين استمرأوا الحياة مع الغنم فى تلك البلاد .

وكان الحلفاء فى أثناء الحرب العالمية الأولى قد قطعوا على أنفسهم العهود بأنهم لا يرومون من الحرب أن يوسعوا رقعة بلادهم أو أن يضيفوا إلى ممتلكاتهم ومستعمراتهم أقاليم جديدة . ولكنهم ما عتموا أن رأوا أن الحرب قد قضت على أربع من امبراطوريات العالم الكبرى وهى روسيا بعد ثورتها الكبرى فى سنة ١٩١٧ وألمانيا والنمسا وتركيا وأنه قد انسلخ عن تركيا وألمانيا ولايات ومستعمرات لا سبيل إلى عودتها إليهما ثانية فنكث الحلفاء بعهودهم وداروا أطماعهم تحت ستار رقيق من نظام الانتداب الذى ابتدعوه فى ميثاق عصبة الأمم .

وكان لبريطانيا وفرنسا بحكم تفوقهما بعد الحرب وخاصة بعد انسحاب الولايات المتحدة وانشغال روسيا بثورتها أن تقتسما مناطق النفوذ ويقررا فيما بينهما حدودها . وكانت فرنسا تدعى لنفسها مركزاً ممتازاً فى الشرق الأوسط مذ كانت أولى الدول الأوربية التى تعاقدت مع سلطان تركيا فى القرن السادس عشر وبسبب حمايتها للشعوب الكاثوليكية داخل الدولة العثمانية وخاصة فى لبنان وما كان لها من ثقافة لاتينية فرنسية بثتها ارسالياتها الدينية وكلياتها ومدارسها المنتشرة فى أنحاء بلدان الشرق الأوسط لذلك طالبت فرنسا

بحقها فى الانتداب على منطقة شرق البحر المتوسط كله . ولكن السياسة الانجليزية كانت على حذر من مطامع الفرنسيين فى الشرق فاتفق الرأى على أن يكون لفرنسا الانتداب على سوريا ولبنان واحتفظت انجلترا لنفسها بالانتداب على العراق وفلسطين وشرق الأردن ولا يبقى بعد ذلك مستقلا من دول الشرق الأوسط غير بلاد العرب بيد الملك حسين شريف مكة . وكانت انجلترا تعلم أن أمام النهضة العربية فى الشرق الأوسط مستقبلا سيعج بالأحداث والاحتمالات وأن مصالحها فى تلك المنطقة تقتضى أن تكون بيدها قواعد استراتيجية ترقب منها تطور الحركة العربية من جهة وتشرف منها على مصالحها فى القناة من جهة أخرى متى آذن الوقت بجلائها عن مصر استجابة للروح الوطنية التى بدأت تتأجج فى مصر منذ ثورتها فى سنة ١٩١٩ فصممت على أن تتمسك بمنطقة نفوذها فى فلسطين وشرق الأردن ، وهى لا تزال على رأيها فيما يخص شرق الأردن على الاقل .

وما كاد الحلفاء يوزعون على أنفسهم أسلاب الحرب باسم الانتدابات حتى ظهر فى ميدان الشرق الأوسط عامل جديد هو فى خطورته اليوم أبعد أثراً وأشد وقعاً من إنشاء القناة — ذلكم هو تفجر عيون البترول قرب الموصل وكركوك بالعراق واختزان كميات هائلة منه فى جهات متعددة على طول المنطقة التى تمتد من خليج فارس إلى ساحل البحر المتوسط وتشمل الكويت وجزيرة البحرين وبلاد العرب السعودية وسوريا ومصر . ولما كان زيت البترول هو عصب الحروب الحديثة والقوة المحركة للطائرات والدبابات والسيارات والسفن الحربية لذلك كان التسابق على استغلال آباره فى الشرق الأوسط من أقوى العوامل التى ركزت اهتمام الدول بهذه المنطقة . وليس أدل على ذلك من جهود ألمانيا الجبارة فى أثناء الحرب الأخيرة للوصول إلى موارده سواء فى رومانيا أو القوقاز أو خليج فارس . والدول فى معركة البترول تتساوى جهودها سواء منها المحروم كبريطانيا وفرنسا أو المتخوم كروسيا والولايات المتحدة . فالمحروم حاجته إليه طبيعية وأما المتخوم فتدفعه إلى التسابق بشأنه عوامل مهمة أخرى . فروسيا مثلا لديها موارد البترول التى تكفيها فى حالتى السلم والحرب وهى ثانية دول العالم إنتاجا للبترول بعد أمريكا ولكنها تابى على منافسيها او أعدائها أن يتوافر لديهم ذلك السائل السحرى الثمين فيستخدموه ضدها إذا قامت الحرب ، والولايات المتحدة تخشى أن ينضب معين بتروها التدفق فى بلادها

فتريد أن تأمن على مستقبلها فى السلم والحرب وذلك بالاستحواذ على بعض موارده الغنية فى الشرق الأوسط .

لذلك ما كادت شركة البترول العراقية تتألف من الانجليز والفرنسيين والهولنديين حتى طالبت الولايات المتحدة بنصيبها فى أسهمها فكان لها مقدار ٢٣,٧٥ فى المائة من أسهمها . وكان هذا أول تدخل من جانب أمريكا فى الميدان الاقتصادى بالشرق الأوسط .

ولما كشف الملك عبد العزيز آل سعود عن منابع البترول فى شبه جزيرة العرب خشى أن يؤدى ذلك إلى تدخل الدول الاستعمارية فى شئون بلاده ولذلك رفض أن يستمع إلى عروض بريطانيا أو إيطاليا واختار بعض الشركات الأمريكية فأعطاها سنة ١٩٣٢ حقوق الامتياز فى مساحات واسعة من بلاده وقد أفادت بلاد العرب السعودية من ذلك فوائد اقتصادية واجتماعية على جانب عظيم من الأهمية . وفى سنة ١٩٣٦ فازت الولايات المتحدة أيضاً بامتياز البترول فى البحرين . وأما بريطانيا فلديها انتاج الشركة الايرانية الانجليزية وهى أقدم شركات البترول فى الشرق الأوسط عهداً وأوفرها انتاجاً ولها فى شركة البترول العراقية مقدار نصف أسهمها كما أن لها إنتاج الكويت وتجد بريطانيا من نفوذها السياسى فى الشرق الأوسط ما يعنيها على المحافظة على مصالحها الاقتصادية . أما الولايات المتحدة فتركز جهودها فى الناحية الاقتصادية وتأتم ببريطانيا طواعية فى الناحية السياسية .

وتحرص انجلترا على مصالحها فى البترول حرصاً شديداً دعاها فى سنة ٩٤٦ إلى إرسال قوة حربية لاحتلال البصرة عندما نشبت بعض الاضطرابات العالمية وخشيت على مواردها فى أيران من الخطر . ولما حاولت روسيا عقب الحرب الأخيرة مد أجل احتلالها لشمال إيران ثم إثارة أهل آذربيجان للثورة والاستقلال عن إيران وأحست بريطانيا أن الخطر الروسى يقترب رويداً رويداً من حقول البترول الايرانية تدخلت بريطانيا فتقدمت إيران بشكواها إلى مجلس الأمن ومازال المجلس يناقش روسيا الحساب حتى اضطرت إلى مغادرة إيران والتخلى عن أذربيجان فأخمدت فيها الثورة وبقيت مصالح بريطانيا فى البترول سليمة ولو إلى أجل موقوت .

ولما كان انتاج البترول الايرانى يصل إلى بريطانيا فى خرابات خاصة عن

طريق قناة السويس كما أن بترول العراق يمر فى أنابيب خاصة تحت أرض العراق وشرق الأردن وفلسطين إلى ميناءى حيفا بفلسطين وطرابلس بلبنان لذلك كان اهتمام بريطانيا عظيما بالتطورات السياسية التى لازمت نهضة بلدان الشرق الأوسط فى السنين الأخيرة . فسايرت انجلترا روح النهضة الحديثة التى بدت بين الشعوب العربيه ووفقت بقدر الامكان بين مصالحها وبين مطالب هذه الشعوب فى الحرية والاستقلال وعلى ذلك نزلت عن حمايتها على مصر وأقرت استقلالها كما نزلت عن انتدابها فى العراق واستعاضت عن الحماية والانتداب بمعاهدتين مع البلدين أوشكتا أن يستنفدا موضوعهما . وبقيت مشكلة فلسطين التى عقدتها انجلترا ومعها الحلفاء فى سنة ١٩١٧ باعلان تصريح بلفور فما أفادت انجلترا من انتدابها عليها سوى الحوادث الدامية والثورات المتعاقبة وقيام النزاع بشأنها بين العرب واليهود حتى أصبحت مشكلة فلسطين من أعقد وأشد ماواجهه العالم الحديث من مشكلات الشرق الأوسط .

أما فرنسا فقد سارت فى سوريا ولبنان وفق سياستها الاستعمارية العتيقة التى ترمى إلى خدمة مصالح فرنسا الكبرى وادماج العناصر الوطنية داخل دائرة الجنسية الفرنسية المرنة فتغذيهم بثقافتها وتغذى بهم جيوشها لتخرج فرنسا من ذلك كله قوية عزيزة الجانب دون أى اعتبار لمبادئ الحرية التى ورثتها عن الثورة الفرنسية والتى لم تسمح منها بقليل او كثير للشعوب التى انتدبت لها . ومع أن نظام الانتداب قد غيّر الأسس التى كانت تقوم عليه سياسة الاستعمار قديماً فجعل واجب الدولة صاحبة الانتداب هو العمل على مساعدة الشعب المنتدبة له وتهيئته لحكم نفسه بل أن ميثاق العصبة لينص صراحة على الاعتراف باستقلال الشعوب الراقية التى كانت خاضعة لتركيا فان فرنسا لم تخط خطوة واحدة فى سبيل تحقيق استقلال هذه الشعوب أو تهيئتها للحكم الذاتى . وكان أول مبدأ راعته فرنسا فى دائرة انتدابها هو مبدأ التفرقة بين المذاهب الدينية والجماعات الوطنية فأوجدت دويلات محلية مستقلة عن سوريا ولبنان كجبل الدروز وإقليم العلويين وسنجق اسكندرونة . كل ذلك لأن الشعور بالاستقلال وبالوحدة العربية فى سوريا كان قوياً وجارفاً وكانت فرنسا تخشاه بدرجة جعلتها تقسو وتتعنت فى مناهضة المصالح الوطنية لأهل البلاد كافة حتى فقدت فرنسا المكانة الممتازة التى كانت لها فى الماضى لا فى سوريا وحدها بل وفى لبنان أيضاً .

لذلك لم يكن غريباً أن ينتهز الوطنيون فرصة اندحار فرنسا أمام ألمانيا فى الحرب الأخيرة فيعملوا على تحقيق أمانيهم فى الاستقلال والتخلص من آثار الانتداب الفرنسى جميعاً دفعة واحدة . وكانت الحكومة الانجليزية تدرك أهمية سوريا ولبنان من الوجهة الحربية منذ كانت دولتا المحور تهددان مصر من جهة حدودها الغربية . وكان الحلفاء يستمدون بترول العراق فى أنابيب حيفا وطرابلس فما كادت تلمح آثار المعاونة التى كان يقدمها أعوان كومة فيشى للمحور فى دولتى المشرق وفى العراق حتى أجمع الحلفاء أمرهم على تحرير سوريا ولبنان من قوات حكومة فيشى وتألفت قوة من الجنود البريطانية وجنود فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ولسون ومعه القائد الفرنسى كاترو للزحف على بلاد المشرق فى خريف عام ١٩٤١ فلم تجد القوة صعوبة فى كسر مقاومة جنود حكومة فيشى . وقد سبق قيام الحملة وأعقبها إعلان من حكومة فرنسا الحرة ومن الحكومة الانجليزية بموافقتهما على استقلال سوريا ولبنان واعتبار كل منهما دولة ذات سيادة فاطمأن الوطنيون فى الدولتين ومهدوا للحلفاء طريق النصر على أعوان المحور .

وبدخول الانجليز منتصرين بلاد المشرق بدأت فى البلاد سياسة جديدة فقد أصبح للانجليز المكانة الحربية الأولى وتأخرت منزلة فرنسا على حين اتسعت دائرة المعاملات بين الانجليز والبلدين . وكان إعلان الاستقلال الذى أصدرته حكومة الجنرال ديجول يشير إلى ضرورة تسوية الروابط بين الطرفين فى معاهدة حرة تعقد بينهما بعد الحرب . ولكن الوطنيين أبوا الاعتراف بحق الانتداب نفسه على أساس أن حكومة فيشى قد انفصلت عن عصبة الأمم فى سنة ١٩٤١ ولم يعد للانتداب على بلادهم أصل قانونى وهم لذلك خليقون أن يتمتعوا بالاستقلال التام وبكل مظاهره من حكم نيابى ديمقراطى وتمثيل أجنبى وجيوش وطنية دون أى اعتراض من جانب فرنسا . واضطرت فرنسا إلى الخضوع فى أول الأمر وانضم الدروز والعلويون إلى سوريا وجرت الانتخابات فاختير الزعيم شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية السورية كما انتخب الشيخ بشاره الخورى رئيساً للجمهورية اللبنانية . ولما كان الحزب الذى يتزعمه الرئيس اللبنانى يناصر حركة الوحدة العربية ويؤيد استقلال لبنان التام فان فرنسا لم تستطع الصبر طويلا وحنق المندوب الفرنسى ذات ليلة وقبض على رئيس

الجمهورية ورجال حكومته واعتقلهم خارج بيروت فى نوفمبر ١٩٤٣ فكان ذلك إيذاناً بميلاد روح وطنية جديدة جعلت اللبنانيين يتعاونون جميعاً ضد الأجنبى . ولقيت الجمهورية الناشئة من جانب أمريكا الحكومة الانجليزية ومن جانب مصر وأخواتها من الدول العربية أكبر عون على فرنسا فلم يسع اللجنة الفرنسية الحرة إلا الرضوخ لمطالب الوطنيين .

ولما ترددت فرنسا وتباطأت فى الجلاء عن البلاد مما لم يعترف لها الوطنيون بمركزها الخاص لجأت سوريا ولبنان تشكوها إلى مجلس الأمن سنة ١٩٤٦ وطالبتا بجلاء الانجليز والفرنسيين جميعاً عن بلادها واضطرت فرنسا أخيراً إلى قبول رأى أغلبية المجلس فحزمت أمرها ومتاعها وانجلت عن بلاد المشرق تاركة بريطانيا وحدها أمام أخطار القومية العربية من جهة ومنافسة أمريكا وروسيا لها فى هذا الميدان الجديد من جهة أخرى .

ورأت انجلترا أن خير علاج للموقف بشقيه أن تحيى فكرة الجامعة العربية التى ازدهرت ردحاً من الزمن فى عهد السلطان عبد الحميد باسم الجامعة الاسلامية وكانت بريطانيا إذ ذاك كعادتها متحيرة مترددة بين تحييذ الفكرة وانكارها فقد كانت تخض على الفكرة لمعارضة النفوذ الروسى الذى كان يهدد أملاك الدولة كما أنها كانت تخشاها خوفاً على ولاء مسلمى الهند نحو الامبراطور الملك . أما بعد انتصار الحلفاء فى الحرب الأخيرة واضطلاع الروس فيه بدور البطولة العالمية فان الخطر الروسى قد تجسم أمام بريطانيا بدرجة جعلتها تقدم على إخراج فكرة جامعة الدول العربية إلى حيز السياسة الواقعية دون أن تبالى بما قد يترتب على تأليف الجامعة من نتائج قد تضر بمصالحها قبل أية دولة أخرى . وكان أول إيذان بفكرة الجامعة الحديثة فى صيف عام ١٩٤١ إذ وقف مستر ايدن وزير خارجية انجلترا يعلن فى قصر محافظ لندن عن سياسة الحكومة الانجليزية بشأن مستقبل الشعوب العربية ويقول « إن روابط الصداقة التى تجمع بيننا وبين العرب ترجع إلى عهد بعيد فلنا بينهم أصدقاء عديدون كما أن لهم بيننا أصدقاء حميمين . . . ولقد كان من أعز أمانى عدد كبير من مفكرى العرب وقادة الرأى فيهم أن تنعم الشعوب العربية بوحدة أوسع مدى مما بلغته الآن . . . ونحن لا يسعنا إلا الاستجابة إلى هذا النداء لأن تقوية الروابط الاقتصادية والثقافية والسياسية أيضاً بين الدول

العربية أمر اعتبره فى الحقيقة طبيعيا وعادلا . ولهذا فان حكومة جلالة الملك تعلن أنها ستناصر كل مشروع يرمى إلى تحقيق هذه الأغراض متى كان المشروع حائزاً لرضاء الجميع . » ولم تكن أمريكا حين أعلنت انجلترا ذلك التصريح قد انحازت بعد إلى جانب الانجليز فى الحرب كما أن فرنسا كانت قد أقصيت عن الميدان مهزومة مهيضة الجناح . أما روسيا فكانت لا تزال مرتبطة بألمانيا وتوشك أن تنقلب عليها حليفتها بغزواتها المروعة . لذلك ولد مشروع الجامعة العربية بمنأى عن أمريكا وروسياوفرنسا وعلى أيدى بريطانيا وحدها وهى إذ ذاك مثقلة بالهموم وفادح المسئوليات . وكأنما أرادت انجلترا أن تترك للشعوب العربية إرثاً يذكرونها به بعد الحرب فكانت أن أعلنت ذلك التصريح الذى يفوق فى مرماه البعيد فى الشرق الأوسط على مشروع قناة السويس أو كشف منابع البترول . وكانت الشعوب العربية منذ قامت مشكلة فلسطين تتوثب لتحقيق فكرة الجامعة العربية ولذلك سرعان ما قتنعت مصر بتبنى المشروع وقامت على تنفيذه مع أخواتها بمقتضى بروتوكل الاسكندرية فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ تم وفق ميثاق الجامعة فى مارس سنة ١٩٤٥ .

و إذا كانت بريطانيا قد ظنت أنه بانشاء جامعة الدول العربية قد أقامت حاجزاً فى وجه التنافس الدولى بشأن الشرق الأوسط . أو إذا كانت الشعوب العربية قد توهمت أن قيام الجامعة سيعصمها من استعمار المستعمرين فقد أخطأت بريطانيا وأخطأ العرب جميعاً . لأن الاستعمار لا يشترط فيه أن يكون مقصوراً على الحكم والسياسة بل إنه ليشمل الثقافة والاقتصاديات أيضاً وهيهات أن تجد الشعوب العربية فى ثقافتها وصناعاتها واقتصادياتها ما يغنيها عن التعاون الأجنبى . ثم إنه ما دامت الحروب أمراً محتمل الوقوع فان الدول التى تطمع فى مكانتها العالمية سترنو دائماً ببصرها إلى منطقة الشرق الأوسط حيث توجد أهم القواعد الاستراتيجية فى العالم .

وسيظل اهتمام الدول الكبرى بهذه المنطقة قائما إلى أن تستكمل شعوب الشرق الأوسط أسباب نهضتها أو تلغى مادة الحرب من القاموس الدولى .

محمد رفعت